بَيْنَ النَّحْو وَالدَّارِسِين لَهُ

د. دفع الله عبدالله سليمان

مقدّمة:





اختلفت الآراء في النّحو العربي من حيث الأهمية وعدمها ومن حيث الصّعوبة والسّهولة، فهناك من يرى أنّه علم جامد لا يتلاءم بوضعه القديم مع الحياة المعاصرة؛ لذا يرى هؤلاء صياغة نحو جديد يتمشّى مع العصر ويواكب التّطوّر الذي شمل جوانب الحياة المختلفة.

وهناك من يرى أنّ المنطق قد أفسد النّحو العربي، وجعله علماً جافاً معقّداً؛ الأمر الذي جعل الطلاّب يجأرون بالشكوى من هذا العلم.

وبالطّبع هناك التيّار القديم الذي يرى أنّ النّحو العربي ليس في حاجة إلى تغيير أو تجديد، وأنه علم مكتمل من جميع الوجوه، وأنّ كتبه يجب أنْ تبقى كما هي تدرّس للصّغار والكبار على حد سواء.

ولما كان الباحث يرى رأياً مغايراً فقد أراد أن يوضّح رأيه فيما أثير حول صعوبة النّحو من جهة وعلاقته بالمنطق من جهة ثانية، والأسباب التي أدّت إلى ضعف الطلاّب من جهة ثالثة، وتطوير النّحو العربي وتيسيره من جهة رابعة.

أ / صعوبة النّحو العربي:

شعر العلماء منذ قديم الزّمان بصعوبة النّحو العربي، وأظهروا ما يجدون فيه من مشقّة وعنت. فها هو أبو غسّان[1] دماذ صاحب أبي عبيدة ـ عندما سمع رأي البصريّين بأن واو المعيّة وفاء السببيّة يُنْصَبُ الفعل بعدهما بأن مضمرة وجوبا ـ كتب إلى المازني ـ إمام البصرة في النّحو آنذاك ـ يشكو إليه ما لقيه من مشقّة في درس النّحو قائلا هذه الأبيات:[2].

وَفكّرْتُ في النَّحْوِ حتى مَلِلْـ ... ـتُ وأتْعَبْتُ نَفْسِي لَـهُ والْبَـدَنْ
وَأتْعَبْتُ بَكْراً وأصْحَابَـهُ ... بِطُـول المَسَائِـلِ فِي كُلِّ فَـنْ
خَـلاَ أنَّ بَـاباً عَلَيْـهِ الْعَفَـا ... ءُ لِلْفَـاءِ يَالَيْتَـهُ لَمْ يَكُـنْ
وَلِلْوَاوِ بَـابٌ إلَى جَـنْبِـهِ ... مِنَ المقْـتِ أحْسِبُـهُ قَـدْ لُعِـنْ

إلى أن يقول:

فَقَدْ كِدْتُ يَا بَكْرُ مِنْ طُولِ مَا ... أُفَكِّرُ فِي أَمْرِ (أَنْ) أَنْ أُجَنْ

ولم يكن أبو غسّان وحده الذي أتعبه النّحو، وإنما نجد آخرين جأروا بالشّكوى من النّحو وآخرين سخروا منه وَمِنْ أمثلته المكرّرة الممجوجة في نظرهم، من هؤلاء الأعرابي الذي وقف على حلقة أبي زيد فظنّ أبو زيد أنّه جاء ليسأل مسألة في النّحو، فقال أبو زيد: سَلْ يا أعرابي عما بدا لك، فقال على البديهة: [3].

لَسْتُ لِلنَّحْوِ جِئْتُكُمْ ... لاَ ولاَ فِيهِ أَرْغَبُ
أَنَا مَالِي وَلامْرِيءٍ ... أَبَدَ الدَّهْرِ يُضْرَبُ
خَلِّ زَيْداً لِشَأْنِهِ ... حِينَمَا شَاءَ يَذْهَبُ
واسْتَمِعْ قَوْلَ عَاشِقٍ ... قَدْ شَجَاهُ التَّطَرُّبُ
هَمُّهُ الدَّهْرَ طِفْلَةٌ ... فَهْوَ فِيهَا يُشَبِّبُ

ولا ننسى في هذا المقام الشّعراء، فقد كانت لهم مواقف مع النّحاة أظهروا فيها تعنّتهم من النحاة وسخريّتهم منهم، من هؤلاء الشعراء الفرزدق الذي كانت له صولات وجولات مع نحاة عصره، فيما يحكى من ذلك أنّه عندما أنشد بيته: [4].

وَعَضُّ زَمَانٍ يَا ابْنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدَعْ ... مِنَ المَالِ إلاّ مُسْحتاً أَوْ مُجَلَّفُ

فقال له عبدالله بن إسحاق الحضرمي: [5] «بم رفعت أو مُجلَّفُ؟» فقال له «بِمَا يَسُوءُكَ وينُوءُ بِكَ عَلَيْنَا أن نَقُولَ وعَلَيْكُمْ أنْ تَتَأوّلُوا».

وعندما أنشد بَيْتَه: [6].

مُسْتَقْبِلِينَ شِمَالَ الشَّامِ تَضْرِبُنَا بِحَاصِبٍ كَنَدِيفِ القُطْنِ مَنْثُورِ
عَلَى عَمَائِمِنَا يُلْقَي وَأرْحُلُنَا عَلَى زَوَاحِفَ تُزْجَي مُخُّهَا رِيرِ

قال له ابن إسحاق الحضرمي: إنّما هو (رِيرُ) بالرّفع فوجد عليه الفرزدق وقال: (أَمَا وَجَدَ هَذَا المُتَفَخُ الخِصْيَيْنِ لِبَيْتِيَّ مَخْرَجاً في العربية).

وهذا هو عمّار الكلبي ــ لما عيب عليه بيت من شعره ــ قال: [8].

مَاذَا لَقِيتَ مِنَ المُسْتَعْرِبِينَ وَمِنْ قِيَاسِ نَحْوِهِم هَذَا الذِي ابْتَدَعُوا

فربّما كانت الطّريقة الصّعبة التي كان يتبعها بعض النّحويين في تأليف كتبهم قد نفّرتْ الآخرين من النّحو، ومن هؤلاء النّحويّين الأخفش الذي كان يتعمّد أنْ تكون كتبه صعبة لكي تكون رائجة وتحتاج إلى شرح يتكسّب به، انظر إلى ما رواه الجاحظ في كتاب الحيوان حين[9]قال: «قُلْتُ لأبي الحسن الأخفش: أنتَ أعلمُ النّاسِ بالنّحو، فَلِمَ لا تَجْعَلُ كتبَكَ مفهومةً كلها؟ ومَا بالنا نفهم بعضَها ولا نفهم أكثرها؟ ومالك تقدّم بعض العويص؟، وتؤخر بعض المفهوم؟. قال: أنا رجل لم أضع كتبي هذه لله وليست هي من كتب الدّين، ولو وضعتها هذا الوضع الذي تدعوني إليه قلّتْ حاجتهم إليّ فيها وإنّما كانت غايتي المنالة، فأنا أضع بعضها هذا الوضع المفهوم لتدعوهم حلاوة ما فهموا إلى التماسِ فَهْمِ مَا لَمْ يفهموا، وإنما قد كسِبْتُ في هذا التدبّر؛ إذ كنتُ إلى التكسّب ذهبت...».

ويروي لنا أبوحيّان التوحيدي محادثة جرت بين الأخفش هذا وأعرابي حين قال[10]: «وقف أعرابي على مجلس الأخفش، فسمع كلامَ أهلِه في النّحو وما يدخل معه، فحَارَ وَعَجِبَ وأطرَقَ ووَسْوَسَ، فقال له الأخفش: ما تسمع يا

أخا العرب، قال: أراكمْ تتكلّمون بكلامنا في كلامنا بما ليس من كلامنا».

والنّحاة أنفسهم يجدون صعوبـة في كتب زمـلائهم الـذيـن خلطوا النّحـو بالفلسفة والمنطق، ولهذا كلّه هاجم بعض الأقدمين النحاة وكتبهم، ومنهم ابن مضاء الأنـدلسي صاحب كتاب الرّد على النّحاة الـذي قال في مقـدّمته: (١١) «قَصْدِي في هذا الكتابِ أنْ أحذفَ من النّحو ما يستغني النّحوي عنه وأنبّه على ما أجمعوا على الخطأ فيه . . ».

وقال أيضا: (١) «و إني رأيتُ النّحويين ــ رحمة الله عليهم ــ قد وضعوا صناعة النّحو لحفظ كلام العرب من اللّحن وصيـانته عن التّغير فبلغوا من ذلـك الغاية التـي أمّوا وانتهـوا إلى المطلـوب الـذي ابتغوا، إلاّ أنّهم التـزمـوا مـا لا يلزمهـم، وتجاوزوا فيهـا القـدر الكـافي فيما أرادوه منهـا، فتوعـّرت مسـالكهـا، ووهنـت مبانيها، وانحطت عن رتبة الإقناع حججها حتى قال شاعر فيها:

تَرْنُـو بِطَـرْفٍ سَـاحِـرٍ فَـاتِــــرٍ أَضْـعَـفَ مِـنْ حُجَّـةِ نَـحْـــوِيّ

على أنّه إذا أخـذت المأخذ المبرأ مـن الفضول المجرّد عـن المحاكـاة والتّخيل، كانت من أوضـح العلوم برهانا وأرجح المعارف عند الامتحـان ميزانا ولم تشمتل إلاّ على يقين أو ما قاربه من الظّنون:

وقد شعر بعض العلماء المحدثين بصعوبة النّحو هذه على النّاشئين فدعوا إلى تجديده وتيسيره و إحيائه.

وربّما تكون الصّعوبة التي أشاروا إليها ناتجة من الآتي:

١ ــ لغة الكتب القديمة التي أُلّف بها النّحو وما في بعضها من حشو.

٢ ـ كثرة ما في علم النّحو من مصطلحات وتقسيمات وتعريفات وما اتّبعه بعض النّحويين في كتبهم من ذكر للموضوع الواحد في أكثر من موضع .

٣ ـ كثرة الخلاف والجدال بين النّحويين في كثير من المسائل النّحوية ، ولذا يقول فيهم على سبيل التندّر يزيد بن الحكم الثّقفي :(١٣).

إذا اجْتَمَعُوا عَلَى أَلِفٍ وَوَاوٍ وَيَاءٍ ثَارَ بَيْنَهُمْ جِدَالُ

٤ ـ اهتمام النّحويين بنظرية العامل التي تؤدي إلى تقديرات وتأويلات يرى بعضهم أنّه لا مبرر لها ؛ لما لها من أثر كبير في تعقيد الإعراب والقواعد المنطقية .

٥ ـ تعليل الأحكام النّحوية بالعلل الفلسفية والمنطقية .

٦ ـ اهتمام بعض النّحويّين بالتّمارين غير العمليّة ، فقد كان بعض النّحويين يبدأون بها كتبهم النحوية فقد قيل إن المبرد صدر كتابه «المقتضب» ببعض المسائل الصّعبة ، وهذا ما دعا سعيد الفارقي أنْ يؤلّف كتابا فيه هذه المسائل سمّاه (تفسير المسائل المشكلة في أوّل المقتضب) .

٧ ـ علم النّحو في نظر بعض النّاس علم جاف ، وأنّ كتبه أو الطّريقة التي كانت تتّبع في تدريسه معقّدة ليست ملائمة لطرق التّربية الحديثة .

ومع ما قيل من أسباب صعوبة النّحو فإنّي أرى أنّ هذه الصعوبة مبالغ فيها . كما أنّني أتساءل لماذا ندّعي صعوبة النّحو فقط . فهناك علوم صعبة يدرسها الطّالب ولا يشكو من صعوبتها كالعلوم والرّياضيات مثلا؟؟ . ذلك لأن هناك دافعاً قوياً يجعله يدرس تلك العلوم ، ولذا نجده يهتمّ بدراستها وتحصيلها ، وإذا قسنا النّحو بالرّياضيات والفيزياء والكيمياء نجده أشدّ سهولة وأكثر هضما .

فالنّحو ـ في نظري ـ كالرّياضيات والعلوم يحتاج إلى ذهن متفتّح ورغبة أكيدة لتعلّمه ، ولهذا نجده سهلا بالنسبة لطلاّب الطبّ والعلوم الهندسة

والرّياضيـات، ومما يدلّ على ذلك ما يحرزونـه من تقديرات عاليـة في امتحانات مقرّرات النّحو.

إذاً فالأمـر في نظري يكمـن في الطّالـب أو الدّارس نفسـه، إذا أراد أنْ يكون النّحو سهـلا بالنسبـة إليه فسيكون سهـلا، وإذا أراد أنْ يكون صعبـا فسيكون صعباً، فالأمر يتوقّف على الجدّ والاهتمام والرّغبة والمثابرة.

ب / بين النّحو والمنطق:

هناك من يقول إنّ المنطق أفسد النحو عنـدما دخل عليه. وقبل أنْ أعلّق على قـول هؤلاء لا بـدّ لي أنْ أشير أنّ الحياة العلميّـة قـد ازدهرت في العصر العبـاسي وتطوّرتْ تطـوّراً كبيراً شمل جميع ألوان المعـرفة. ففي ذلـك العصر نضجت ثمار الثّقافة العربيّـة وانفتح العرب على الحضارات المختلفة وامتزجـت الثّقافة بغيرها من الثّقافات ونشطت حركة التّرجمة، ومـن العلوم التي ترجمت المنطق والفلسفة وكان لها أثر كبير في العلوم العربيّة حتّى عَدَّ ابن سينا المنطق خادم العلوم.[١٥] إذ طغت النّزعة المنطقيّة ودخلت في كلّ علـم فخاف بعض من أصحاب الذّوق السّليم من سيطرة هذه النّزعة. قال البحتري:[١٦]

كَلَّفْتُمُونَـا حُـدُودَ مَنْطِقِكُـمْ ... وَالشِّعْـرُ يُغْنِي عَنْ صِدْقِهِ كَذِبُـهْ
وَلَمْ يَكُنْ ذُو القُرُوحِ يَلْهَـجُ بِالْـ ... مَنْطِـقِ مَا نَـوْعُـهُ وَمَا سَبَبُـهْ
وَالشِّعْـرُ لَمْحٌ تَكْفِـي إشَارَتُـهُ ... وَلَيْسَ بِالهَذْرِ طُوِّلَتْ خُطَبُـهْ

ولم يستطع النّحو التّخلص من هذه السّيطـرة. انظر إلى الدكتور مازن المبارك حين قال[١٧] «وقد صبغ النّظـر الفلسفي والجدل الكلامي و الأسلوب الفقهي

البحث النّحوي بصبغته وغلب على الكثير من علله وطبع تعبيرات النّحاة بطابعه».

لذلك نجد بعضا من النّحاة من أعلن رفضه لهذا الاتّجاه الفلسفي، منهم أبو علي الفارسي الذي كان يقول عن نحو الرّماني الذي خلط النّحو بالفلسفة:(١٨) «إنْ كان النّحو ما يقوله الرّماني فليس معنا منه شيء، وإنْ كان النّحو ما نقوله فليس معه منه شيء».

وفي نظري أنّ المنطق أفسد النّحو من جهة وأفاد من جهة أخرى.

أما إفساده للنّحو فينحصر في الآتي:

(١) ما نجده في بعض الكتب النّحويّة من جدل عقيم و (مماحاكات) لا تخدم اللّغة.

(٢) تعليل بعض الأحكام النّحوية بالعلل الفلسفيّة مثل قولهم: (إنّ الفاعل يجب أن يتأخر عن الفعل لأنّ الفعل عامل فيه، والمؤثّر يجب أن يتقدم على المتأخر به».

(٣) اهتمام بعض النّحويين بالتّعريفات والحدود إلى درجة المبالغة، ففي تعريف الاسم وحده أشار ابن الأنباري إلى أنّه(١٩) «ذكر فيه النحويّون حدوداً كثيرة تنيف على السّبعين)، أما فائدة المنطق للنّحو فيتلخّص – في نظري – في الآتي:

١ ـــ النّحو بطبعه قام على الاستقراء والتّحليل وضمّ الشّبيه إلى شبيهه بالقياس، وقد تطوّر هذا عندما اختلط النّحو بالمنطق، فاكتسب النّحو أسلوب الحوار والجدل المثمر، وأصبح القياس هو العمود الفقري للنّحو، قال ابن

جنّي: [٢٠] «إذا بطل أن يكون النّحو رواية ونقلا وجب أن يكون قياساً وعقلاً».

وقال ابن الأنباري: [٢١] «إنّ إنكار القياس في النّحو لا يتحقّق لأنّ النّحو قياس كله فمن أنكره فقد أنكر النّحو».

وقال الكسائي: [٢٢].

إنَّمَا النَّحْوُ قِيَاسٌ يُتَّبَعْ   وَبِهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ يُنْتَفَعْ
فَإِذَا مَا أَبْصَرَ النَّحْوَ الفَتَى   مَرَّ فِي المَنْطِقِ مَرّاً فاتَّسَعْ

٢ ــ كان للمنطق الفضل في نحو أسلوب التّعليل المقبول الذي يخدم اللّغة ويتمشّى مع الفطرة والذّوق السّليم؛ لأنّ بعض العِلل مقبول كما قال ابن جنّي: [٢٣] «إنّ علل النّحويّين على ضربين، أحدهما واجب لا بدّ منه لأن النّفس لا تطيق في معناه غيره، والآخر ما يمكن تحمله إلا أنّه على تجشم واستكراه له».

وقال أيضا: [٢٤] «ولست تجد شيئا مما علّل به القوم وجوه الإعراب إلاّ والنّفس تقبله والحس منطو على الاعتراف به».

٣ ــ كما كان للمنطق أثر في المناظرات التي قامت بين النّحويّين والتي أكسبت النّحو العربي خصوبة وأدّت في النّهاية إلى تكوين المدارس النّحوية.

٤ ــ نشاط حركة التّأليف وبالذّات في الكتب الخاصة بالخلاف بين البصريّين والكوفيّين، والكتب الخاصّة بعلل النّحو، والكتب الخاصّة بأصول النّحو، والكتب الخاصّة بالردّ على النحاة.

٥ ــ قامت من بعض النّحويين حركة مناهضة تدعو إلى تخليص النّحو مما

علق به وتشير إلى أهميّته في المعنى وتركيب الكلام كعبد القاهر الجرجاني الذي يرى في كتابه دلائل الإعجاز أن علم النّحو لا ينحصر في الإعراب وضبط أواخر الكلمة، وإنما يتوقّف عليه المعنى ونظم الكلام. وذلك حين قال: [٢٥] «واعلم أن ليس النّظم إلاّ أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النّحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها». وقال أيضا: [٢٦] «فلا ترى كلاما قد وصف بصحّة نظم أو فساد أو وصف بمزيّة وفضل فيه إلا أنت تجد مرجع تلك الصّحة وذلك الفساد وتلك المزيّة وذلك الفضل إلى معاني النّحو وأحكامه ووجدته يدخل في أصل من أصوله ويتّصل بباب من أبوابه».

فالمنطق وإن أضرّ بالنّحو من نواح فقد أفاده من نواح أخرى.

(جـ) أسباب ضعف الدّارسين للنّحو العربي:

كثرت الشّكوى من مستوى طلاب الجامعة. فهناك من الأساتذة من يلقون المسئوليّة على المراحل الدّراسية السّابقة للجامعة، ومنهم من يرى أنّ (هذا الضعف اللّغوي قد أصبح ظاهرة جامعيّة) [٢٧]، وفي نظري ينبغي ألاّ نحكم على الدّارسين كلهم بأنّهم ضعفاء في النّحو العربي وإنّما ينبغي أن نقول: إنّ بعضهم لم يستطع الوصول إلى المستوى المطلوب من حيث الأداء اللّغوي السّليم. ويجدر بنا أنْ نشير إلى أنّ هذا الضعف ليس قاصراً على النّحو العربي فحسب، وإنّما نجده يشمل علوما أخرى كالرّياضيات واللّغة الإنجليزيّة مثلا.

على أية حال يمكننا أنْ نرجع ضعف بعض الدّارسين للنّحو العربي إلى الأسباب الآتية:

١ / الشّعور بأنّ النّحو صعب ومعقّد، فقد ولّد هذا الشّعور عقدة من

دراسة النّحو وفهمه لدى بعض من الدّارسين.

٢ / عدم الرّغبة الأكيدة من بعض الطلاّب في دراسة النّحو، ويعزى ذلك إلى القول بأنّ دراسته لا فائدة منها؛ لأنه لا حاجة لنا به كما يدّعي بعضهم، أو لأنّ علماء النّحو لا يجدون المكانة المرموقة في المجتمع مثل التي يجدها غيرهم من دارسي العلوم الأخرى.

٣ / عدم اهتمام بعض الطلاّب بالتّدريب والقراءة والاطّلاع؛ لأنّ قراءة القواعد النّحويّة وحدها ــ في نظري ــ لا تكفي لصقل الطّالب بل لا بدّ له من القراءة في القرآن الكريم والأحاديث النبويّة والاطلاع في دواوين الشّعراء وكتب الأدب حتى يستطيع الدّارس بالدّربة والمران أنْ يقرأ قراءة سليمة ويفهم ما يقرأ. ولا بدّ له حين القراءة يلاحظ ضبط الكلمات باحثا عن الأسباب لهذا الضّبط.

٤ / الأساس غير متين: بالإضافة إلى ما سبق فإنّني أعزو ضعف بعض الطّلاب في الجامعة إلى أنّ أساسهم غير متين. فإذا كان أساس الطّالب طيّبا في المراحل الدّراسية السّابقة للجامعة، فإنّه لن يجد صعوبة في دراسة النّحو بالجامعة؛ ذلك لأنّ النّحو مرتبط بعضه ببعض، كما أنّ الأبواب النّحوية متشابهة، فما يدرسه الطّالب في المتوسط والثّانوي هو نفس ما يدرسه في الجامعة، اللّهمّ إلاّ زيادات وإضافات جديدة تقتضيها الدّراسة الجامعيّة، ولهذا نجد الطلاّب المتفوّقين في الشّهادة الثّانوية كطلاب الطب والهندسة والعلوم يفهمون النحو بسهولة ويحرزون فيه ــ كما قلت آنفاً ــ درجات عالية، ذلك لأنّ أساسهم قبل الجامعة متين.

٥ / ربما يرجع ضعف بعض الدارسين إلى الطّريقة التي درسوا بها، فقد لاحظت أنّ الطّلاب يتفاوتون في فهمهم للنّحو العربي، مع أنّهم درسوا مقرّرات

واحدة في المراحل الدّراسية قبل الجامعة . فهذا التفاوت ــ ربّما ــ يرجع إلى التّفاوت في الطريقة أو المنهج الذي سلكه أساتذة هذه المادّة في المراحل الدراسيّة السّابقة، فمن المؤكّد أنّ الأستاذ يلعب دوراً كبيراً في ذلك. فهناك من الأساتذة من يحبّب هذه المادّة إلى طلابه، ومنهم من يكون سبباً في تنفيرهم منها، وبالتّالي يؤدّي ذلك إلى عدم اهتمامهم وعنايتهم بها، وهذا يقود بعضهم إلى الضّعف الذي نلاحظه عليهم في المرحلة الجامعيّة .

(د) تطوير النّحو وتيسيره:

لئن بذل العلماء السّابقون في الدّراسات النحوية جهودا مضنية مشكورة، فإنّ الباحثين اليوم لاحظوا صعوبة في دراسة النّحو على النّاشئة، ولهذا قامت محاولات متعدّدة تدعو لإصلاح النّحو أو تيسيره أو إحيائه .

من أهمّ تلك المحاولات ما قامت به وزارة المعارف المصرية سنة ١٩٣٨م، إذ كوّنت ــ لهذا الغرض ــ لجنة من الدكتور طه حسين وآخرين .[٢٨] ومنها محاولة الأستاذ إبراهيم مصطفى في كتابه «إحياء النّحو» الذي قدّم له الدكتور طه حسين، ومنها محاولة الدكتور شوقي ضيف في مقدّمة لكتاب «الرد على النحاة»، لابن مضاء الأندلسي، ومنها محاولة الأستاذ عبد المتعال الصّعيدي في كتابه «النّحو الجديد»، ومنها محاولة الأستاذ أمين الخولي في البحث الذي كتبه بعنوان «الاجتهاد في النّحو العربي». وكانت هذه المحاولات وغيرها تشير إلى أنّ الحاجة أصبحت ماسّة إلى صياغة نحو جديد خال مما علق به في تاريخه من شوائب . ومع ما جاء في هذه المحاولات من آراء جديدة فقد أعجبتني في هذا الصّدد عبارة قالها الدكتور مازن المبارك إذ قال:[٢٩] «لا يجوز أنْ نبدأ بوضع نحو

جديد قبل أنْ نعرف النّحو القديم والأسس التي قام عليها، والعوامل التي تأثّر بها، إن كل دراسة للنّحو تبدأ من قمة الهرم دراسة ناقصة».

وفي نظري أنّ الـذين يدرسـون النّحو مستـويات مختلفة، ويمكـن تقسيمهم حسب المراحل الدّراسية الآتية:

١ / المرحلة الابتدائيّة والمتوسّطة.

٢ / المرحلة الثّانوية.

٣ / المرحلة الجامعية لغير المتخصّصين في الّغة العربية.

٤ / المرحلة الجامعيّة للمتخصّصين في اللّغة العربيّة.

وإذا كان هناك تطوير فينبغي ألا يمسّ القواعد الأساسيّة وجوهرها، فالنّحو — في نظري — ينبغـي أن يكون كما هو بمصطلحـاته القديمة، لكـن ينبغي أن يكون هناك تدّرج في دراسته، بأن يكون مبسّطـا للمرحلة الابتدائيّة، وأن تدرّس لهم القواعـد النّحويـة من خـلال عرض حكايـات قصيرة يسألـون عن مغـزاها ومحتواهـا، ثم يطلب منهـم تكوين الجمل وتـرتيبها، أما في المرحلتين المتـوسّطة والثّـانـويّة فيجـب أن ينقـل بـالطـلاّب خطـوة إلى الأمام فتـدرس لهم الأبـواب الأساسيّة في النّحو والصّرف من خلال النصـوص الأدبيّة الرّاقية، ومـن خلال الآيات القرآنية والأحـاديث النّبويّة مع العناية بالتّـدريبات والتّطبيقات، ولا بّد أن تكون النّصـوص التي تجرى عليهـا هذه التّدريبـات منتقاة ذات معـان راقية وأسلوب رائع جذّاب.

وإذا ألقينا نظرة على منـاهج ومقررات القواعـد النّحويّة في المراحل الـدّراسية السّابقـة للجامعـة نجدهـا مكتملة، فقـد روعي فيهـا جميع الأسـس التّربويـة

الحديثة من عرض النّحو في ظلّ القرآن والشّعر والنّثر الفصيح.

أما في المرحلة الجامعيّة لغير المتخصّصين في اللّغة العربيّة فينبغي أن يكون هناك تطوير بأن يدرس لهم النّحو الوظيفي؛ لأنّ الوظيفة الأساسيّة لدراسة النّحو تكمن في التّعبير السليم والنّطق والضّبط السّليم، لذلك ينبغي أن تحذف لهم بعض الأبواب في النّحو، وتدرّس لهم القواعد الأساسية في ظل القرآن الكريم والأدب، وأن تختار لهم الآيات ذات الحكمة والتي فيها توجيه وإرشاد كما يختار لهم النّصوص الجيدة من الشّعر والنثر، وبذلك تُثار فيهم الرغبة لدراسة القواعد النّحوية التي سيجدون في دراستها فائدة ومتعة.

أما الطّلّاب المتخصّصون في اللّغة العربيّة فيجب أن يدرس لهم النّحو من مراجعه الأصليّة. وينبغي ألّا يتبادر إلى الذّهن أنّ قراءة هذه الكتب لا فائدة فيها، ففي قراءتها توسيع للمدارك والأفق وترويض للذّهن، كما أنّ الطّالب سيقف على أجود الشّعر؛ لأنّ كثيراً من الشّواهد التي يهتم بها النّحاة تعتبر من أرقى الشّعر وقالها كبار الشعراء الذين يحتجّ بشعرهم.

أضف إلى ذلك أنّهم يقفون في هذه الكتب على كثير من آيات القرآن الكريم وأوجه إعرابها والرّوايات التي وردت بشأنها. والنّحو في هذه الكتب هو الذي عناه المستشرق دي بور بقوله: (٣٠) «اعلم أنّ النّحوَ أثرٌ رائعٌ من آثارِ العقلِ العربي، كما فيه دِقّةٌ في الملاحظةِ ونشاط في جمع ما تفرّق وهو لهذا يحمل المتأمّل فيه على تقديره ويحقّ للعرب أنْ يفخروا به».

ربما يقال إنّ قراءة هذه الكتب صعبة!! فنجيب بأنّ هؤلاء الطّلّاب متخصّصون في اللّغة العربية فلا بدّ من قراءة هذه الكتب. نعم إنّهم سيجدون في قراءتها بعض الصّعوبة ولكنّ هذه الصّعوبة ستزول إذا كانت هناك رغبة أكيدة

لدراسة النّحو. فليس هناك أمر صعب إذا كان هناك شغف بالمادّة وحبّ لها وإصرار على تعلّمها، وإذا كان هناك أستاذ متمكّن من مادّته يستطيع أن يعرض هذه المادّة بطريقة سليمة ومؤثّرة.

هناك من يرى استبعاد بعض أبواب النّحو العربي بحجّة أنّها نادرة الاستعمال في حياتنا، لهؤلاء يمكن أنْ أقول: إنّ الدارسين ــ في نظري ــ قسمان:

(١) قسم متخصّص في اللّغة العربيّة.

(٢) قسم غير متخصّص في اللّغة العربيّة.

أما المتخصّصون في اللّغة العربيّة فإنّني أرى أنّهم لا بدَّ أنْ يطّلعوا على كلّ صغيرة وكلّ كبيرة في كتب التّراث النّحوي، ولذا فإنّهم ملزمون بدراسة جميع الأبواب النّحوية مهما صعبت ومهما قيل من عدم جدوى دراستها.

وأما غير المتخصّصين فقد أشرت فيما سبق إلى تسهيل النّحو وتيسيره لهم وأنْ تدرس لهم القواعد الأساسيّة التي يحتاجون إليها في حياتهم اليوميّة، ويختار لهم ما يوافق حاجة الأمّة ويساير رقيّها الاجتماعي، وأن يربط لهم النّحو بالأساليب الأدبيّة الراقية؛ لتكون دراسة النّحو لهم محببة، ولذا أرى أن يستبعد لهم ما يلي:

(١) كل ما فيه حشو وزيادة.

(٢) حذف الخلافات و(المماحكات) والعلل.

(٣) باب الاشتغال.

(٤) باب التّنازع.

(٥) التّمرينات غير العلمية.

أما بـاب المثّنى الذي يـرى بعض المثقفين حـذفه، لأنّه نـادر الاستعمال فإنّي أرى لا بدّ مـن دراسته، لأنّه أوّلاً باب سهـل لا تعقيد فيه، وثانيـاً لاستعماله في القرآن والشّعر، أضف إلى ذلك أنّ المثنّى وما يتّصل به موضوع شائق وفي دراسته متعة لأنّنا لو بحثنا في نصـوص اللّغة العربيّة من قرآن وشعر لوجـدنا تبادلا بينه وبين المفرد من جهة، وبينه وبين الجمـع من جهة أخرى. [٣١] وعليه يمكننا أن نضع ضمير المفرد موضع ضمير المثنّى. قال الثّعالبي [٣٢] (من سنّة العرب أنْ تقـول رأيت عمـراً وزيداً وسلّمـت عليـه أي عليهما). وقال تعـالى: [٣٣] ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ والمراد أنْ يرضوهما، ويمكننا أن نضع ضمير المثنّى موضع ضمير المفرد (تقول العرب: افعلا ذلك والمخاطب واحد) [٣٤] وقال تعالى: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ [٣٥]، وإنما نسيه واحد.

كما يمكننا أنّ نضع ضمير المثنّى موضـع ضمير الجمع كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [٣٦] كما يمكننا أنْ نضع الجمع موضع المثنّى ومن ذلك قول العرب: (امرأة ذات أوراك ومآكم) ولا يكون لها إلاّ وركان.

وقال تعالى: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ [٣٨] فقـد جمع الله القلوب مع أنّ المخاطب اثنان.

لكن ذلك يتوقّف على وضوح المعنى واسْتِقَامَتِهِ.

كل ذلك يوضّح لنـا ما تتمتّع به قواعد اللّغـة العربية من مرونـة واتساع ومن تنوّع في التّعبير عن المقصود واهتمام بالمعنى واستقامته.

خلاصة القول:

وخلاصة القول إنّ هناك صعوبة في فهم النّحو العربي، ولكن هذه الصّعوبة في نظري بولغ فيها وزيد في حجمها وإذا كانت هناك دعوات إلى تجديد النّحو وصياغته صياغة جديدة وحذف بعض الأبواب منه، فيجب أن يكون هذا للطلاّب في المراحل الدراسيّة السّابقة للجامعة، أو لطلاّب الجامعة غير المتخصّصين في اللّغة العربيّة بشرط أنْ تكون أصول النّحو ومصطلحاته القديمة كما هي لا تغيير ولا تبديل فيها؛ لأنّ المقترحات التي نادت بتغيير بعض المصطلحات القديمة ـ كما قال الدكتور عبد المجيد عابدين ـ «لا تعالج المشاكل الأساسيّة في صعوبة النّحو وتعقيده، بل ربّما تزيده تعقيداً إذ أحلّوا مصطلحات جديدة غريبة على النّاس محلّ مصطلحات قديمة مألوفة لديهم».

وقد وقف النّحو العربي صامداً لم يتأثر بتلك الدّعوات التي نادت بتغيير أصوله، ولا بالتيّارات الجديدة التي أرادت أن تعصف به وبمصطلحاته.

أما الطلاّب المتخصّصون في اللّغة العربيّة ـ إضافة إلى دراستهم للنّحو دراسة مقارنة ـ فلا بدّ لهم من دراسة النّحو القديم في كتبه المعروفة التي تعتبر من كتب التّراث التي يجب المحافظة عليها على مرّ العصور والأزمان، ولهذا نجدني مؤيداً الدكتور شوقي ضيف في قوله في مقدّمة الإيضاح «ومع أنّنا نؤمن في عصرنا بأنّ النّحو ينبغي أنْ يُيَسرَّ على النّاشئة، وأنْ نخرج منه هذه العلل المُعَقَّدة، نرى من الواجب أنْ يعتني المتخصّصون فيه بدراسته في صورته القديمة وكلّ ما داخلها من فلسفة العلّة، حتى يتبيّنوا تطوّره وما شفع به هذا التّطور من جهود عقليّة خصبة، جعلت بعض المستشرقين يشيد بما تمّ لهذا العلم على أيدي أسلافنا من نضج وإكمال ويحقّ للعرب أنْ يفخروا به».

الهوامش والتّعليقات

(١) دماذ لقبه واسمه رفيع بن سلمة بن رفيع العبدي ـ روى عن أبي عبيدة ـ انظر الفهرست لابن النّديم، ص ٨١، وطبقات النّحويّين واللّغويّين للزبيدى، ص١٨١.

(٢) إنْبَاهُ الرّواة على أَنْبَاهِ النحاة ـ لجمال الدين أبي الحسن القِفْطِي، القاهرة: دار الفكر العربي ـ الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، جـ ص ٥، ٦.

(٣) أخبار النّحويّين البصريّين لأبي سعيد السّيرافي ـ تحقيق د. محمد إبراهيم البنّا، دار الاعتصام، ط ١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص ٦٩.

(٤) ديـوان الفـرزدق، (بيروت، دار بيروت للطّباعـة والنّشر، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م. م٢، ص ٢٦ نشأة النّحو وتاريخ أشهر النّحاة، للشيخ محمد الطّنطاوي، الطبعة الثانية، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، ص ٥٩.

(٥) نفسه، ص ٦٠.

(٦) ديـوان الفـرزدق (بيروت: دار بيروت للطّباعـة والنّشر ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، م١، ص٢١٢.
أخبار النّحويّين البصريّين للسّيرافي، تحقيق د. محمد إبراهيم البنّا، ص٤٤.

(٧) نشأة النّحو وتاريخ أشهر النّحاة للشّيخ محمّد الطّنطاوي، ص ٦٠.

(٨) الخصائص لابن جنّي، جـ١، ص ٢٣٩.

(٩) الحيوان، للجاحظ، مصر مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطّبعة الأولى ١٣٥٦هـ/١٩٣٨م، جـ١، ٩١/ ٩٢.
(١٠) الإمتاع والمؤانسة لأبي حيّان التّوحيدي، تحقيق أحمد أمين وأحمد زين، القاهرة، ١٩٣٩م/ ١٩٤٢م، جـ٢، ص ١٣٩.
(١١) كتاب الرّد على النّحاة لابن مضاء القرطبي، تحقيق د. شوقي ضيف، الطّبعة الأولى، (القاهرة، دار الفكر العربي ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م)، ص٧٥.
(١٢) نفسه، ص ٨٠.
(١٣) شرح المفصّل لابن يعيش، م٢، القاهرة، مكتبة المتنبي، جـ٦، ص٢٩.
(١٤) انظر مقدّمة المقتضب للمبرد، تحقيق محمّد عبد الخالق عضيمة، بيروت، عالم الكتب، جـ١، ص ٨٣ ــ ٨٤.
(١٥) ضحى الإسلام، أحمد أمين، الطّبعة الأولى، القاهرة، مطبعة الاعتماد ١٣٥١هـ/ ١٩٣٣م، جـ١، ص ٢٧٤.
(١٦) ديوان البحتري، تحقيق كامل حسن الصيرفي، م١، الطّبعة الثانية، دار المعارف بمصر، د.ت. النّحو العربي، العلّة النّحوية، نشأتها وتطورها، د. مازن المبارك، (بيروت: دار الفكر، ط ٣، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص٧٣.
(١٧) النّحو العربي ــ العلّة النّحويّة نشأتها وتطورها، د. مازن المبارك، بيروت، دار الفكر، ط ٣، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص ١٢٩.

(١٨) انظر: نـزهة الألبـّاء في طبقات الأدبـاء لابن الأنبـاري، تحقيق محمّد أبو الفضـل إبـراهيـم، دار نهضة مصر للطّبـع والنّشر، (القـاهـرة، مطبعـة المدني)، د. ت. ص ٣١٩.

(١٩) أسرار العـربيّة لابـن الأنبـاري، تحقيق: محمـد بهجـة البيطار، (دمشـق ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م)، ص ٥.

(٢٠) الخصائص لابن جني، ١/ ٣٦١.

(٢١) لمع الأدلـة في أصول النّحـو لأبي البركـات عبدالـرحمن كمال الـدين محمّد الأنبـاري، تحقيـق سعيــد الأفغـاني، مطبعــة الجامعــة السّوريــة، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م، ص ٩٥.

(٢٢) إنباه الـرّواة على أنباه النّحاة للقفطي، تحقيـق محمّد أبو الفضل إبـراهيم، القاهرة، دار الفكر العربي، الطّبعة الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، جـ١، ص ٢٦٧.

(٢٣) الخصائص، ١/ ٥٨.

(٢٤) نفسه، ١/ ٥١.

(٢٥) كتاب دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمّد شاكر، القاهرة، مطبعة المدني، ص ٨١.

(٢٦) نفسه، ص ٨٢، ٨٣.

(٢٧) اللّغـة العربيـّة وأبناؤهـا للدكتـور نهاد الموسى، الـرّياض، دار العلـوم، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م، ص ١٢.

(٢٨) النّحو الجديـد، لعبد المعتـال الصّعيدي، القـاهرة، دار الفكـر العربي، المطبعة النّموذجية، د. ت. ص ٨٤.

(٢٩) النّحو العربي: العلّة النّحويّة. نشأتها وتطورها، للدكتور مازن المبارك، بيروت، دار الفكر العربي، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص ٤.

(٣٠) تاريخ الفلسفة الإسلاميّة، تأليف الأستاذ ت. ج. دي بور، نقله إلى العربيّة د. محمّد عبد الهادي أبو ريدة، الطّبعة الخامسة، بيروت، دار النّهضة العربيّة، ١٩٨١م، ص ٥٧.

(٣١) انظر في ذلك: ظاهرة التّبادل بين المفرد والمثنّى والجمع، للدكتور دفع الله عبدالله بحث منشور بمجلة جامعة الملك سعود، المجلد الثاني، الآداب (١)، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م

(٣٢) فقه اللّغة وسر العربيّة للثّعالبي، تحقيق مصطفى السّقا، وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، (القاهرة: مطبعة الحلبي ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م)، ص ٣٣٨.

(٣٣) سورة التّوبة، آية رقم ٦٢.

(٣٤) فقه اللّغة وسر العربيّة للثّعالبي، ص ٣٤٠.

(٣٥) سورة الكهف، آية رقم ٦١.

(٣٦) سورة فاطر، آية رقم ٤١.

(٣٧) المزهر في علوم اللّغة وأنواعها للسّيوطي، مجلد (١)، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربيّة، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨،) ص ٣٣٣.

(٣٨) سورة التّحريم، آية رقم ٤.

(٣٩) المدخل إلى دراسة النّحو العربي على ضوء اللّغات السامية، للدكتور عبد المجيد عابدين، (القاهرة، دار الطّباعة الحديثة)، بدون تاريخ، ص ٦.

(٤٠) مقدّمة الإيضاح في علل النّحو لأبي القاسم الزّجاجي، تحقيق الدكتور مازن المبارك، الطّبعة الرابعة، (بيروت: دار النفائس ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ص هـ.

المراجع

- القرآن الكريم
- أخبار النّحويين البصريّين لأبي سعيد السّيرافي، تحقيق محمّد إبراهيم البنّا، دار الاعتصام، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- أسرار العربيّة، لأبي البركات عبدالرّحمن الأنباري، تحقيق محمّد بهجة البيطار، دمشق ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م.
- الإمتاع والمؤانسة، لأبي حيّان التوحيدي، تحقيق: أحمد أمين، وأحمد زين، القاهرة، ١٩٣٩م/ ١٩٤٢م.
- إنباه الرّواة على أنباه النُّحاة، لجمال الدين أبي الحسن القفطي، القاهرة، دار الفكر العربي، الطّبعة الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- الإيضاح في علل النّحو لأبي القاسم الزّجاجي، تحقيق الدكتور مازن المبارك، بيروت، دار النهضة العربية، الطبعة الرابعة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

- تاريخ الفلسفة الإسلاميّة، تأليف الأستاذ ت. ج. دي بور، نقله إلى العربيّة د. محمّد عبدالهادي أبو ريدة، بيروت، الطّبعة الخامسة، دار النّهضة العربية، ١٩٨١م.
- الحيوان للجاحظ، مصر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطّبعة الأولى ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٨م.
- الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جنّي، تحقيق محمّد علي النّجار، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٢م، بيروت لبنان، دار الهدى للطباعة والنشر.
- ديوان البحتري، تحقيق: حسن كامل الصّيرفي، م ١، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية) د. ت.
- ديوان الفرزدق، بيروت: دار بيروت للطّباعة والنشر، م ٢، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م. وم١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- شرح المفصّل لابن يعيش، مجلد (٢)، (القاهرة، مكتبة المتنبي) د. ت.
- ضحى الإسلام لأحمد أمين، القاهرة، مطبعة الاعتماد، الطّبعة الأولى ١٣٥١هـ/ ١٩٣٣م.
- طبقات النّحويّين واللّغويين لأبي بكر محمد بن الحسن الزّبيدي، وتحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، مصر: دار المعارف، د. ت.
- ظاهرة التّبادل بين المفرد والمثنّى والجمع، د. دفع الله عبدالله سليمان، بحث منشور بمجلّة جامعة سعود، المجلد الثاني، الآداب (١)، ١٤٠١هـ/ ١٩٩٠م.

- فقه اللّغة وسر العربيّة لأبي منصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل الثّعالبي، تحقيق: مصطفى السّقا، وإبراهيم الإبياري، وعبدالحفيظ شلبي، (القاهرة: مصطفى الحلبي، ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م).
- كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمّد شاكر (القاهرة، مطبعة المدني)، د. ت.
- كتاب الرّد على النّحاة لابن مضاء القرطبي، تحقيق: شوقي ضيف، القاهرة: دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، سنة ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م.
- اللّغة العربيّة وأبناؤها للدكتور نهاد الموسى، الرياض: دار العلوم ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤.
- لمع الأدلة في أصول النّحو لأبي البركات عبدالرّحمن كمال الدين محمد الأنباري، تحقيق سعيد الأفغاني، دمشق، مطبعة الجامعة السورية، ١٣٧٧هـ/ ١٩٧٥م.
- المدخل إلى دراسة النّحو العربي على ضوء اللّغات السامية، عبد المجيد عابدين، القاهرة، دار الطباعة الحديثة)، د. ت.
- المزهر في علوم اللّغة وأنواعها، لأبي الفضل عبد الرّحمان بن الكحال أبي جلال السّيوطي، تحقيق محمّد أحمد جاد المولى، ومحمّد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمّد البجاوي، مج١، ط ٤، (القاهرة: إحياء الكتب العربيّة، عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م).

- المقتضب للمبرّد، تحقيق محمّد عبد الخالق عضيمة، جـ ١ (بيروت: عالم الكتب ١٩٦٣م).
- النّحو الجديد، عبد المعتال الصّعيدي، الناشر: دار الفكر العربي، القاهرة، المطبعة النموذجية)، د. ت.
- النّحو العربي: العلّة النّحويّة نشأتها وتطورها، مازن المبارك، ط ٣، (بيروت: دار الفكر ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).
- نزهة الألبـاء في طبقات الأدباء لأبي البركات كمال الـدين عبدالرّحمن بـن محمد الأنباري، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر للطّبع والنّشر، (القاهرة: مطبعة المدني)، د. ت.
- نشأة النّحو وتـاريخ أشهر النّحاة للشيـخ محمّد الطّنطاوي، القاهرة، الطّبعة الثانية، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م).

